الفصل الثالث

آفـــاق جديـــدة

1) تأكيد الذات:

يرى كثيرون أن المراهقة تقتصر على انتفاضة مزدوجة في الجسم والقلب كما أوضحنا من قبل، ولكن الحقيقة أكثر تعقيدًا من ذلك، فإذا ما بقينا عند المستوى النفسى، نجد أمامنا طريقين جديدين علينا أن نسلكهما، ورغم قلة معرفتنا بهما إلا أنهما لا يقلان أهمية عن باقى الطرق، ويتيح لنا أحدهما ملاحظة حركة تأكيد الذات عند الشباب، بينما يوضح لنا الآخر نموهم الفكرى.

تطور الخلق: يتكون خلق الطفل، أى طريقته الخاصة في السلوك تبعًا لميوله، وينتظم من خلال نموه، ويبدو في أول الأمر متقلبًا غير واضح، ولكنه يتضح شيئًا فشيئًا إلى أن يثبت في سن النضوج. ولا يكون في البداية سوى تعبير غير متناسق للمزاج الفطرى، ثم يحمل بكل التجارب التى تقيم الشخصية الاجتماعية. وأثناء النمو، تصيغ التجربة المستمرة التى يمر بها الفرد عند مواجهته للوسط الذى يعيش فيه، فكرته عن نفسه، ويتحدد تمييزه غير الكامل أولا، بين الأنا واللا أنا.

ولكن كما يحدث في الأشكال الكبرى الأخرى للحياة العقلية، لا يسير تطور الخلق على وتيرة واحدة، بل له إيقاعه، ويمكننا أن نلاحظ، مراحلا من الاستيعاب الهادئ "تفصل بينها" مراحل من الهياج. فبينما تعتبر الطفولة الثالثة واحدة من الفترات الهادئة التى ينظم فيها الخلق دون صعوبة في تكيف ملحوظ بين الفرد وبيئته، تتصف سنوات البلوغ على العكس بالقلق الذى يجعل التكيف مزعزعًا عسيرًا، كما تمتاز بالثورة وتأكيد الذات. وهذه تذكرنا بلحظة حرجة أخرى تقع خلال مرحلة الطفولة الثانية وقد وجد فيها والوان H. Wallon أول تعبير عن الشعور بالذات. ويمكنك أن تلاحظ ذلك أنت أيضًا عند أصغر أولادك إذا ما كان في الثالثة من عمره.

ولا تنعدم جدوى فترات ثورة الأنا، بل ولا يجب أن نعتبرها كنوع من الجنون العابر نتحمله كشر لابد منه. ولكنها على العكس

من ذلك فرصة يتحقق فيها تقدم سريع حاسم، وهكذا يتسنى للطفل فى المراهقة اكتشاف أوساط أكثر اتساعًا، وكذلك اكتساب نشاطات جديدة، وتدريب اجتماعى يسمح له بإقامة علاقات جديدة بينه وبين الكبار. وكذلك يصل إلى فكرة أكثر عمقًا ورزانة عن نفسه، وتتشكل شخصيته كلما قوى شعوره بذاته. وتكون هذه الشخصية في أول أمرها متقلبة، وتأخذ تعبيرات متلاحقة تبدو متعارضة في نظر الفرد نفسه، وفى نظر الوسط المحيط له، ولكن هذه التعبيرات تحقق للشخصية كيانها، ويشغل هنا الخيال نفس المكان الكبير الذى يأخذ في وجدان المراهق ويزيد الخلط بين حقيقة الفرد ومظهره. ويكمن الخطأ في الاعتقاد أن هذه التجارب تخلو من الأهمية والجدوى، مثلها في ذلك مثل تجارب الحياة الجنسية الناشئة، ولكنها على العكس من ذلك علامات على التوجيه الصحيح.

وكانت أولى الخطوات في الحياة الاجتماعية تعتبر دائمًا كحدث خطير تحيطه هالة من الاحتفالات، وهكذا كانت الشعائر الطقوسية تصاحب عند البدائيين ظهور البلوغ، ويعنى بالنسبة لهم إمكانية الحفاظ على النوع والانتقال من الحياة العائلية إلى حياة القبيلة والبدء في حياة نشيطة، وكان الهدف من الأعمال الغريبة – وكثيرًا ما كانت وحشية – هو إدراج الشباب في معتقدات القبيلة وتقاليدها. فهى تعد الشاب للحرب، فكان عليه مثلا أن يتحمل خلع سن أو الوشم في صمت، أما الفتاة، فكانت تشترك في أعمال جماعية لجنسها، ويعبر الصيام في خلوة وحمامات التطهر عن دورها المقبل كزوجة وأم. وكانت لحضارات الأزمان القديمة احتفالاتها أيضًا، فى أثينا كان الشاب يعتبر مراهقًا في حوالى الثامنة عشرة، وفي روما كان الشاب يخلع الثوب الأبيض ليرتدى عباءة الرجال. وفي عصور الإقطاع، كان الغلام يتحول فى حوالى سن الرابعة عشرة إلى فارس يصاحب سيده إلى الحرب. وقد تركت هذه العادات القديمة آثارها في أيامنا هذه، ويظهر ذلك مثلا فى أول حفل راقص تصطحب إليه الفتاة في الأوساط الميسورة. ويلاحظ هولنجورث L, S. Hollinngworth أنه

يمكننا أن نجد في احتفالات البلوغ أسئلة رئيسية ودائمة يختص بها علم نفس المراهقة.

والتدريب على الحياة الاجتماعية في الوقت الحاضر يبدو أكثر صعوبة منه في الألوان البدائية للحياة، ويظهر تكوين الشخصية كانتصار حقيقى. وفى الحب، تكون الخبرات التى تصاحبه كمشكلات يجب حلها، أما هنا فنجد مشكلات دقيقة ومباشرة، لا مجرد ضرورات عامة للنمو العاطفى. فاختيار المهنة والاتجاه لتأثيث منزل والموقف الذى يتخذ من الوالدين والآخرين، كل هذه تبدو كمشكلات في أعين المراهق، وهكذا نبعد عن مشكلات الطفل الصغير، فلم يعد كافيًا الجواب القاطع الذى يصدر عن الشخص الكبير، بل يجب إعطاء جواب شخصى، وعلى هذا الجواب يتوقف نجاح تأكيد الذات في تكيف مشع بالوسط. ولكن الذات الشابة لا تتأكد فقط عند المستوى الاجتماعى، بل تأخذ أعماقها في المستوى النفسى في مرحلة الإحساس بالذات وتعتبر الشخصية التى تتكون هكذا نتيجة لهذا النشاط المزدوج من الاتصال والانطواء. وقد تفشل كل هذه الجهود، وقد تضيع في دوامة من الاضطراب والقلق، ويحدث هذا عند الأفراد السويين في أنماط مختلفة، ولكن في كل الحالات يكون دور المربى عسيرًا جدًا.

وهكذا كان علينا أن ندرس حركة تأكيد الذات من وجهة النظر الاجتماعية والنفسية، وبعد ذلك سنبحث في الأشكال التى يأخذها وفى أنواع الفشل الرئيسية التى يتعرض لها والنتائج التربوية التى تترتب عليه.

الرغبة في الاستقلال ورد فعل المعارضة: يظهر تأكيد الأنا الاجتماعية للمراهقين في مناسبات عديدة، ولكن دائمًا في صورة نشاط شخصى نوعاً ما، وتعتبر المراهقة في الواقع انتقالا من الحالة نصف طفيلية عند الطفل إلى الحياة "المستقلة"، فتستبدل الوصاية بحالة يصير فيها الشخص مسئولاً عن أفعاله، ويشهد القضاء الشرعى نفسه بذلك، فيتحرر القاصر، وهذه هى اللحظة التى يفك

فيها المراهق قيده ويقلع، وهكذا يميل الشباب بطريقة غامضة ولكنها إجبارية إلى اتخاذ نوع من الحياة يختلف تمامًا عن الطفولة، فيتركون العادات التى مضى عهدها إلى نشاطات جديدة، وكذلك العالم المغلق الذى عرفوه في سنواتهم الأولى ويستعدون لحياة تتحقق بها رسالتهم كبالغين.

وليست الرغبة في "الاستقلال" إلا تعبيرًا عن هذا التطور، ويزيد التململ كلما زادت قوة المراهق، وتثقل عليه كل سلطة، ويبدو كل ضغط عليه أقل احتمالاً كلما كان غير قادر على فهم أهميته. وقلما يشعر بالحرية الغالية على الشباب إلا ككسر للقيود التى تعوق حركته.

وترتبط هذه الحاجة الجديدة بتوازن جديد يقوم بين رد فعل غريزيين أساسيين ينظمان سلوك الفرد عند مواجهته لبيئته: وهما "رد فعل التقليد" و"رد فعل المعارضة" ولعلك تعرف أن كل فعل يتم أمامنا يميل إلى أن يتكرر فينا، ففيه قدرة على الإيحاء والعدوى. ولكن هناك اتجاهًا آخرًا طبيعيًا أيضًا ويعتمد على الرفض والمعارضة. ويتضح كل من هذين الاتجاهين تبعًا لمزاجنا وسننا. وكلاهما نافع، فيزيد الأول فينا استيعاب كل ما يعتبر غريبًا علينا، بينما يزيد من قدرتنا على المقاومة وضرورة القيام بعمل مغاير. فإذا ما بلغنا حد التطرف يتحول الأول إلى محاكاة غير حازمة والثانى إلى معارضة لا طائل تحتها. ويوجد الاتجاهان مرتبطين بطريقة طبيعية في السلوك، ولكن بينما يتفوق رد فعل التقليد خلال الطفولة الثالثة، يزيد رد فعل المعارضة في أول المراهقة ويتحول تلقائيا إلى حب في المعارضة. وتتناقص القابلية للإيحاء بينما تقوى قدرات الكف والضبط، ويظهر ذلك بوضوح تام عند الأولاد في صورة عدوانية مقاتلة، أما رد فعل التقليد فيظل كذلك ويمتزج برد الفعل الآخر في صورة عدم تقليد، وهو شائع في هذا السن ويسمح بإتيان الجديد بأقل جهد، وليس هذا في الواقع إلا تقليدًا معكوسًا.

المراهق والأسرة: ويجد حب الاستقلال ورد فعل المعارضة مجالها للتطور في وسطين يقيمان أمام تأكيد الذات أكبر عدد من الصعوبات وهما الأسرة والمدرسة.

وقد تكون مشكلة العلاقة بين الوالدين والمراهقين أكثر تعقيدًا في فرنسا عنها في أى مكان آخر؛ لأن الأسرة تحتفظ هناك بأهمية فقدتها في البلاد الأخرى، فيصطدم نفاد صبر الوالدين بإدراك يكون أحيانًا غير كاف من الأبناء، ويؤدى هذا إلى أزمات وخيمة العاقبة.

والأسرة بالنسبة للطفل هى الوسط الطبيعى الذى يتمكن فيه من التفتح على خير وجه، ولكن منذ البلوغ، لم تعد الأسرة تكفى لنشاط الشباب، وبخاصة الفتيان منهم، وهكذا تبعث الأعمال المنزلية الضجر في نفوسهم، ولا يساعد المراهقون والديهم عن طيب خاطر، بل يميلون للتنزه مع أصدقاء يختارونهم، ويكفون عن الطاعة، ويصيرون سريعى الانفعال، وكثيرًا ما يصعب مراسهم، وتكون شكواهم في أغلب الأحيان لأسباب تافهة متناقضة، ويميلون للتغيير دون أن يعرفوا في أول الأمر إلى ما يهدفون، ولما كان لهم مظهر البالغين، على الأقل بقاماتهم وصوتهم، فإنهم يعتقدون أنهم قد صاروا أندادًا لوالديهم.

وأكثر ما يثيرهم عادة مشكلة اختيار المهنة ومشكلة الزواج.

فعلى معظم الشباب اختيار مهنة، وسواء كان ذلك لتوجيه دراستهم التى عليهم استكمالها، أو للتلمذة المهنية ويقع القرار الأول على الأسرة، فإذا كان اختيار المراهق مطابقًا لرغبتها، سارت الأمور على ما يرام، وإلا كان ذلك فرصة للصدام والأحقاد. وللمهنة دوران أكثر مباشرة في تأكيد الذات، فهى في الواقع رمز للاستقلال لأنها ستسمح للشباب بالتعيش من كسبهم، ولهذا كان للنقود الأولى التى يكسبها المراهق مذاقا حلوا، وفي الحال يرتفع مؤشر الثقة بالنفس إلى القمة، وتتعقد الأمور إذا ما احتفظت الأسرة بالمرتب لنفسها، وقد عرفت شبانا كانوا على استعداد لإعطاء كل النقود التى

يسكبونها لأسرهم، ولكنهم لم يستطيعوا التغاضى عن سلب الأسرة لمرتباتهم كما لو كان ذلك أمرًا طبيعيًا. أما الطالب الذى لم يكسب شيئًا بعد، بل وعليه أن يأخذ مصروفًا من أسرته، فهو يحس في أغلب الأحيان بنوع من الغضب وخجل لا يعرف كنهه، ولكنه يجد عزاء نسبيًا في التمتع بحرية استعمال هذه النقود. ولعلك تعرف أشخاصًا يرتاحون كثيرًا لخداع الآخرين لهم بصفة مستمرة، ففى هذا مع ذلك خير دليل على قيام الشخصية.

والغراميات، أو عواطف المراهقين بعامة نحو الغرباء، مصدر من مصادر المشكلات العميقة للأسرة، فهذه حياتهم الخاصة، والويل لمن يمد إليها يده الطائشة! ويخشى الوالدان – وهم على حق – ما قد يترتب عليها من عواقب وخيمة، ولذلك كان على الوالدين أن يضفوا على رقابتهم الضرورية مهارة لا تعرف الكلل. وعادة ما يثار عند نهاية المراهقة، موضوع الزواج بالنسبة للفتاة، فإذا لم يجد المقتدم لخطبتها رضا الأسرة، فكم من دموع تزرفها! أما إذا فرضته عليها الأسرة بشكل ما، فكم من أخطار يخشى عليها منها في المستقبل. أما بالنسبة للشاب فتقل الصعوبات لأنه يتزوج في وقت متأخر، عندما يمكنه تكسب عيشه، وبذلك يستطيع أن يدافع عن اختياره.

ويضاف إلى هذين المصدرين من مصادر الأزمات الممكنة عدد كبير من الأحداث اليومية الصغيرة: كالملاحظة التى يبديها الوالد عند رؤية ولده وهو يدخن أول سيجارة أمامه ويعتبر هذا ملاحظة غير لائقة، والرقابة التى يفرضها الوالدان على الخطابات التى يتسلمها أو الكتب التى يقرؤها ولا يغتفرها لهم الابن، وكذلك أزمة ربطة العنق التى لا يمكنه شراؤها. وسترى أن الوالدين يحتاجون إزاء ذلك أحيانًا لجرعة من الصبر تفوق طاقتهم كبشر.

ولا يظهر تأكيد الذات دائمًا في صورة معارضة، ومع ذلك يجب أن نعترف بالمراهقة كفترة حرجة تمر بها العلاقات الأسرية، وهذا ما أثبته بوزمانBusemann، فهى مرحلة حاسمة في الانفصال

التدريجى بين الوالدين والأطفال، ويتم هذا الانفصال أثناء النمو، ويبدأ عند الولادة بالانفصال عن كيان الأم، ويستمر في النظام الغذائى ودخول المدرسة، ثم يكتمل بما يسمى، بالنظام النفسى، عندما يترك الفرد الأسرة ليكون لنفسه بيتًا جديدًا.

ويعترى عاطفة البنوة كذلك تغيير عميق، فقد كانت بمثابة الشيء المطلق والغريزى لدى الطفل، إذ كان الأب والأم يمثلان في نظره الكمال والقوة والقدرة ذاتها. ثم تأتى الطفولة الثالثة ببعض التغيير، أما في المراهقة، فتزيد هذه العاطفة عمقًا وتحاط بهالة من الحياء، خاصة لدى الطفل الذى تغيظه بسهولة الآن نفس المداعبات التى كان يتلقاها وهو طفل. فتفقد هذه العاطفة صفتها الغريزية التى تعوضها بقوة إرادة تقوم على العرفان بالجميل والتقدير والحب مع الرضا. وتتخذ أحيانًا نفس اتجاه العاطفة الأخوية عندما يحاول الأب أن يكون صديقًا لابنه، والأم كاتمة أسرار لابنتها، ولا تقوم هذه الاتجاهات، وهى شائعة في أيامنا هذه – على أساس من "البنوة" ولذلك يخشى أن تخلق مواقفًا زائفة أو أن تتسبب في حالات من البلبلة الخطيرة.

ومن العسير القول بأن تأكيد الذات يزيد نوعًا ما من عمق عاطفة البنوة، ولكن من المؤكد مركز الوجدان أن ينتقل مع المراهقة، وأن الحب العائلى يصير إحدى مكونات العاطفة عند الشباب.

ويمر الحب البنوى أحيانًا بأزمة عاتية، وهذا ما يحدث لذوى الطباع الثائرة أمام الوالدين المتسلطين أو على العكس، أمام الوالدين الضعيفين، فقد ينشأ شعور عدائى يتناوب أحيانا مع الحب القديم حتى يهدأ بالتفاهم والتراخى، وأحيانًا أخرى يذهب إلى حد القطيعة مع الأسرة، وهكذا تزول التبعية بالهروب من منزل الأسرة، وأحيانًا بالعنف، وأخيرًا بالقطيعة النهائية. وقد عالج الأدباء هذا الموضوع كثيرًا، وهو لسوء الحظ شائع.

المراهق والمدرسة: والمدرسة هي الوسط الثانى الذى يتيح للأنا المراهقة فرصة التفتح وبخاصة إذا كان الشباب يعيش في مدرسة داخلية. وكثيرًا ما تعتبر المدرسة عقبة في سبيل الاستقلال المرجو، فما هى إلا بديل للأسرة، وهناك مع ذلك حالات يكون فيها الضغط المدرسى وسيلة لإظهار حلاوة الحياة في منزل الأسرة. ولكن يثير القانون المدرسى – حتى في أصلح الظروف – الضجر والسعى للتحايل لدى التلاميذ، ولعل أدرى الناس بذلك هم ممثلوا هذا القانون من مشرفين وقادة بالداخلية.

ولا تحقق الدراسات نفسها إشباعًا للتلميذ المراهق الذى ينقم على قسوة جدول المدرسة ويجرى وراء هواية أو موضوعات لا يضمها المنهج فيقرأ في السر مؤلفات جديدة بخاصة تلك التى يخفيها عن أعين مدرسيه ووالديه. ورغم ذلك فقد أثبتت بعض الأبحاث الحديثة أن الشباب – وبخاصة القاطنين بالأحياء الفقيرة – يجدون دائما في المدرسة إشباعًا كاملا، فهى تحررهم بلا شك من فقر الوسط الذى نشأوا فيه.

وإذا كانت المدرسة كمؤسسة اجتماعية تثير ردود فعل المعارضة خاصة، فإنها كمهد للثقافة، تمد الشباب بثروات الفكر والحضارة التى تسهم في تكوين شخصياتهم، فهى تدعوهم للتفكير، وتمدهم بأنماط تشحذ خيالهم وتدفعهم إلى تقليدها. ولكن شتان ما بين تأكيد الذات من خلال الكتب والدراسة، وتأكيدها عن طريق الاتصال المباشر بالواقع، وهذه هى حالة "الطفل المحمل بالأغلال" التى وصفها مورياك F. Mauriac(*)، ومع ذلك بقى أن نقول إن المدرسة تلائم العمل الصامت الذى ترسخ من خلال الشخصية.

الأنا الشابة ووسط البالغين: وكلما تهاوت قيود التبعية التى كانت تربط المراهقين بالأسرة أو بالمدرسة، كلما أحست الشخصية الشابة أنها صارت أكثر قوة وحرية وامتلاء بالحماس والأمل، فتزيد

(*) كاتب فرنسى معاصر.

من اتصالها بالجماعات المختلفة التى ستعيش معها، وهنا يتعرض تأكيد الذات لصعوبات جديدة.

فإن الشباب الذين تعلموا حرفة معينة، أو أتموا دراساتهم ويطمعون في مركز معين، يصادفون عند دخولهم الحياة العملية جيلاً مستقرًا لا يحسن عادة استقبال مثل هذه المطالب، وهكذا تقوم بين الشباب والمسنين معارضة لا يمكن تجنبها ويستمر حتى بعد النضج ويظهر الصراع بين الأجيال في المجال الفنى. وترى نفس المعارضة في مجالات الاقتصاد والسياسة والاجتماع أيضًا، وكن على ثقة أن الذين كانوا في الثامنة عشرة أو العشرين عندما قامت الحرب العالمية الثانية يميلون إلى تمييز أنفسهم عن الشباب السابق لهذه الحرب. أما في زمن السلم، فإن المشكلة تحل نفسها بنفسها، فمع السن وبالتجربة، تهدأ نفوس الشباب ويستولون شيئًا فشيئًا على مكان المسنين. ومع ذلك، فقد تسمح بعض الأحداث – كثورة مثلا – للشباب بالوصول السريع، في وقت مبكر أحيانًا، إلى الأعمال الجادة.

ويثير اندماج الشباب في جماعة البالغين مشكلة ثانية، فإن تأكيد الذات، وهو حدث طبيعى وضرورى لهذه السن، يؤدى دائمًا إلى تنافر بين الفرد والوسط الذى يعيش فيه. وقد لاحظ مندوس Mendousse أن المراهقين يسعون إلى تكييف الوسط لهم أكثر من تكيفهم بالوسط، وهذا لانبهارهم بالأنظمة الاجتماعية التى يلتقون بها عند خروجهم من الأسرة أو المدرسة، ويثور البعض، ويستسلم البعض الآخر، ولكن قلة منهم فقط هى التى تصل إلى تكيف كامل؛ وإذا استمر رد فعل المعارضة حتى ما قبل النضوج، فإن هذا يؤدى بالمراهقين إلى الفردية والسعى قبل كل شئ إلى إشباع ميولهم، ومن هنا ينشأ العصيان الفوضوى أو يكون الهروب إلى الحلم والخيال لذوى الطباع أقل خشونة ولا يصل إلا الموهوبون لفرض وجهات نظرهم على عصرهم، وهذا ما نراه عند الفنانين العباقرة الذين يختارون سبيل الثورة. أما إذا انتصر رد فعل التقليد، فإن الفرد يقبل قوانين الجماعة في مجموعها، وكذلك عاداتها القبيحة لمجرد أن

"يفعل مثلما يفعل الآخرون"، وهذا ما يؤدى إلى نوع من المطابقة الخاملة.

ويبدو أن هذين الحلين متطرفان وخطيران، وأن ما يهدفان إليه هو التوفيق بين القوى الفردية وقواعد الحياة الاجتماعية، وليس أصعب من هذا التوفيق على المراهقين؛ إذ يبلغون حد التطرف ويعرفون كيف يتخذون موقف المعارضة، وقد ترغم الظروف عى ارتجال أساليب تتيح لهم التخلص من هذه الخطوة بأى شكل من الأشكال، ولكن لا يبدو أن الشخصية لا يمكنها أن تقوم في تجانس على مثل هذه الأسس التجريبية الخالصة؛ إذ ينجم عن ذلك مشكلات خلقية سنتعرض لها فيما بعد.

الإحساس بالذات: رأينا حتى الآن كيف تتحدد معالم الشخصية باتصالها بأوساط مختلفة، ولكن يصحب تأكيد الذات وهو عمل خارجى، عمل آخر نفسى داخلى يؤدى إلى الإحساس بالذات عن طريق التفكير.

فيلاحظ، إلى جانب الرغبة في الحياة الاجتماعية لدى الشباب، رغبة أخرى تبدو مناقضة للرغبة الأولى، وهى الرغبة في العزلة واتخاذ مجال مستقل، وهكذا يتخلص المراهقون من التكيف الاندماجى بالأشياء، وهو من خصائص الطفولة، ويقوم فاصل بين تجاربهم وآرائهم وتجارب وآراء كانت تأتى بها البيئة المحيطة بهم معدة ناضجة إليهم، كما يهوون الأسرار ويشعرون برغبة في الابتعاد والتفكير والتأمل، وتظهر لديهم القدرة على مخاطبة أنفسهم (٦)، وبذلك يزدوج العالم الخارجى الآن فصاعدًا بمعالمهم الداخلى، وهو عالم العواطف والذكريات والآمال ويأخذ اكتشاف هذه الحقيقة النفسية التى تقوى مع البلوغ، شكل الإلهام، ويجعل هذا الاتجاه إلى التفكير-وكان من قبل غير ثابت أو كامل، الازدواج اللازم للتأمل الباطنى ممكنًا، وينتظم هذا التأمل -وكان فى أول عهده

---

(٦) وهذا ما درسته تفصيلاً في كتاب "أزمة الغرابة عند الشباب" فى الفصول 4، 6، 10، 12 المؤلف.

بدائيًا غير راسخ، كوظيفة عقلية حقيقية، ويمكنك أن تقدر مدى تقدم التحليل الداخلى إذا ما قرأت بعض المذكرات الخاصة بالمراهقين. مثل مذكرات مارى باشكيرتسيف Marie Bashkeirseff[٦] أو مذكرات فرانسوا الغريب التى كشف لنا فالنسان Valensin عنها حديثًا.

ويؤدى الاهتمام بالتفكير إلى إعادة صور الأنا وجعلها تبدو كما لو كانت تعبيرًا عن نشاط الضمير الفردى؛ وهذا واقع يتضح بالذات لدى المفكرين من الشباب الذين يعشقون أناهم الداخلية وكأنها شخص يحبونه، ويجدون فيها ملاذًا آمنا كلما قست عليهم الحقيقة الخارجية أو خذلتهم.

ومنذ ذلك الحين، ينمو تأكيد الذات على مستوى الشعور، وكذلك على مستوى الفعل، ولكن في ظروف أخرى مغايرة؛ إذ لا يعانى في الواقع من أى قسر قد يفرضه الاتصال بالآخرين، ولا من قاعدة إلا هوى الفرد نفسه. ويبنى خيال المراهق المتأجج شخصيته من خلال الشخص الذى يود أن يكونه ويضفى عليه جمالاً، ويقوم ما يشبه الجفوة بين الحياة الحقيقية والرؤيا الخيالية التى تزوده بها أحلام اليقظة، ويصير بذلك الاتفاق عسيرًا بين الأنا العاملة والأنا الحالمة التى تنشأ عن الإثارة الخيالية بالإحساس بالذات.

حب الذات: ونجد هذين المظهرين الأساسيين لتأكيد الشاب لذاته في الكرامة أو "حب الذات" الذى يبلغ في المراهقة حدًا لا يعرفه فى أى مرحلة أخرى. ويرتد هذا الحب إلى الفرد نفسه، ويظهر في أول الأمر في صورة انتباه للجسد والزينة والسرور عند الوقوف أمام المرآة، وهذا ما قد يتحول إلى تأمل الذات وحب الفرد لصورته، أى ما يسمى بالنرجسية وترتبط بانتشار الإثارة الجنسية، كما يرى علماء التحليل النفسى، ومن هنا يكثر ظهورها عند الفتيات، ويعتقد بعض علماء الأخلاق أن فيها اضطرابًا قد يؤدى إلى تعقيم النمو الأخلاقى. فإذا ما لاحظنا مدى شيوع هذه النرجسية وعدم

---

(٦) فتاة روسية من أسرة من النبلاء نزحت مع أسرتها عقب قيام الثورة إلى فرنسا، وعاشت بها في ترف وفن وحب وآمال وآلام إلى أن ماتت ولم تبلغ بعد الثامنة عشرة من عمرها.

زوالها بسرعة، كان علينا أن نتساءل هل تصبح هذه الظاهرة – وهى طبيعية في تكوين الشخصية -خطأ أو مرضا إذا ما طال بها المقام. وترى هذه النرجسية أيضًا على المستوى النفسى، في حب الشخص الذى يتقمصه المراهق، ويصاحبها إحساس بالزهو يتولد عن الشعور المتزايد بالقيمة التى ينسبها المراهق لنفسه. ويتضاعف هذا الزهو عند ذوى الطباع المنطوية عندما يزيد البعد بين الحياة الاجتماعية والحياة الداخلية. ولما كان من الصعب على المراهق أن يبرز، فهو ينصرف عن طيب خاطر إلى التعالى.

ولا يقتصر حب الذات في الحالات الطبيعية على تأمل الذات، بل يؤدى عند الاتصال بالآخرين إلى رغبة جامحة في التنافس، في المسابقات الرياضية، ويمتزج بالميل للفوز فيها الرغبة في التفوق على نفسه وكذلك في التفوق على الآخرين. ويزيد الاهتمام برأى الآخرين، وبخاصة عند الفتاة، ويؤدى هذا إلى نوع من الغرور وكذلك إلى اتجاه للمبالغة. وهذه هى النتائج المألوفة لتأكيد الذات. وتزيد الأهمية التى يعلقها الشباب على اعتدادهم بنفسهم وعلى سمعتهم عند الآخرين. ولا يخلو هذا الغرور من النتائج الخطيرة، ولكن علينا ألا نقلق لما نعتبره عيبًا من عيوب هذه المرحلة وانعكاسًا لطبيعتهم التى تميل للمبالغة في كل شىء، ومع ذلك فالثقة بالنفس ضرورية للشباب.

الشخصية الشابة: حاولت أن أستعرض كيف يظهر تأكيد الذات خلال المراهقة وكيف يسيطر على قيام الشخصية ويدعمه. ولا ينشأ تأكيد الذات هذا – كما يرى البعض – من ضعف المؤسسات وتهاون الأخلاق أو من الإضافة في التربية المتحررة. ولا شك أنه بأشكاله الحالية يتفق وعصرنا وحالتنا الاجتماعية، ولكنه يوجد في كل الأزمان ويعبر بطريقة مستمرة عن نمو القوى الجسمية والفعلية للفرد أثناء الفترة الأخيرة من نموه، وكذلك عن رد فعل الرغبة في التسلط إزاء الإحساس النقصى تجاه الشخص البالغ، ويستمر أيضًا خلال هذه الفترة. وليست الشخصية الشابة إلا أول

اختبار تجتازه الأنا التى يلهبها الخيال عند اتصالها بأوساط أكثر اتساعًا، وتنفتح بالضرورة أمام المراهق.

وعندما يقترب من النضوج، يسير تكوين الشخصية في طريقه الصحيح، وتعود إمكانية التكيف بالوسط المحيط، هذا التكيف الذى اضطرب مع البلوغ حتى بدا وكأنما لن تقوم له قائمة فيما بعد، وتختفى الاختلافات العضوية والنفسية التى كانت تعوق تقدمه. ومع ذلك لا يحسن بنا أن نتعجل قيام هذا التكيف؛ إذ إن على الشباب أن يتكيف بحاضره أقل من تكيفه بمستقبله، وأن يتكيف "بشدة" إذا صح هذا التعبير.

ولعلنا نلم بمدى التقدم عندما نقارن بين شخصية في سن العشرين وما كانت عليه في أول البلوغ، فإن الاهتمامات الجديدة التى اكتشفت والتجارب الشخصية الأولى التى تحققت فعلاً والمشكلات الكبرى للحياة التى – إن لم تكن قد حلت إلا أنها قد وجهت على الأقل – كل هذا يجعل الشخصية تمر من حالة البلبلة إلى الشكل المحدد، إلا بالنسبة للذين يبالغون في إطالة حياة الطفولة المدللة، فيتعرضون بذلك لتحقيق تكيف أعوج بعد أن تأخر توقيته كثيرًا. ومنذ هذه اللحظة، تجد الشخصية تعبيرًا واقعًا لها عند بعض الفنانين، أما بالنسبة للفتاة، فيمكن الجزم بأنه قد تم لها اكتساب شخصيتها.

ولا تستمر كل عناصر الشخصية الشابة هذه، بل تختفى بعض معالمها إزاء ضرورة الاختيار بينها، ولهذا يقال إن المراهقة أكثر ثراء من سن النضوج. ولكن الأسس نفسها لا تتغير، ويبقى فقط التكملة الاجتماعية للبناء، وهذه هى الإضافة التى يحلى بها السن الشخصية. وهذه العناصر التى تأتى متأخرة تنضج أكثر، وتكون بذلك مدعاة للوهم والخطأ، كما أنها تكون أكثر ضعفًا وأقل تميزًا.

الثائرون والمستقيمون: ولكن ما الأشكال التى تأخذها حركة تأكيد الذات تبعًا للأفراد؟ ولهذا السؤال أهمية كبرى؛ إذ يبدو –

لاختلاف ما يحدث عن الطفولة – أن النمو يأخذ طرقًا مختلفة تبعًا لأنماط محددة، وهكذا يتحقق اكتساب الشخصية بأسلوبين مختلفين اقترح تسميتهما: بالثورية والاستقامة.

ويتم الأسلوب الأول "الثورية" في تباه وبطريقة تمثيلية؛ إذ يؤدى الانفصام النفسى إلى ثورة مؤقتة، وميل للجديد، والرغبة في التميز إلى سعى وراء الغرابة في الثياب والكلام. وهكذا ينتج عن اكتشاف الذات حركة ظاهرة من الذاتية والنرجسيه. ثم تهدأ أزمة "الغرابة" هذه، التى تظهر في الأفعال والحركات اليومية، وكذلك في الأفكار والمشاعر، عند نهاية المراهقة. ولكن يبدو أنها ترتبط بإيقاع النمو، وينجم عنها هزات مفاجئة تتسبب في أحداث قليلة الأهمية. والنمط الثوري الشائع عند فنانى المستقبل وقادته.

أما بالنسبة للأسلوب الثانى "الاستقامة"، فيتم تأكيد الذات دون أحداث هامة، وتمر فترة عدم التكيف دون نتائج، ولا يزيد عمق التعارض بين الطفولة وسن النضوج، بل يكاد يحس المراهق بالتغير والتقدم مستمرين فيه. ويتفق التفكير والاهتمامات الجديدة، ويكون الخيال هنا أقل جموحًا منه في النمط الأول، ويظل النشاط على مرونته ومطابقته للواقع، دون أن يمس الحماس المؤقت أعماق النفس. ويتحول هؤلاء "المستقيمون" إلى أناس إيجابيين ورجال أعمال.

الفشل في تأكيد الذات : وللأسف لا يتم تأكيد الذات دائمًا بطريقة طبيعية، فإن الاضطرابات التى تعترى الشخصية المراهقة تعادل في عددها اضطرابات وجدان المراهق، ويقول رانك O. Rank عالم التحليل النفسى أن الخوف من هذا التأكيد هو السبب الرئيسى لكل الاضطرابات النفسية.

وتدل الملاحظة البسيطة لأول وهلة أن لكل من النمطين المعتادين لتكوين الشخصية صورة مشوهة، فإلى جانب المستقيمين، نجد "الحائرين" الذين يكتفون بعكس وسطهم فقط، فلا تكون لهم على

الإطلاق شخصية محددة، وإلى جانب الثائرين، نجد "الثائرين جدًا" الذين لا يمكنهم التكيف، بل يستمرون على عنادهم وغرابتهم بأشكالها المختلفة حتى تلقى بهم أخيرًا بين غير المستقرين والفاشلين. ويوجد كذلك أنواع من النكوص والتبيت كتلك التى تحدثنا عنها في معرض حديثنا عن الوجدان في مجال الشخصية، وهذه هى حالة الذين لا يمكنهم اختيار مهنة خوفا من المسئولية ولرغبتهم الدفينة في الحفاظ على رعاية الأسرة لهم، أو الذين يقومون بالتمرين على عدة أعمال دون أن يصلوا إلى الاستقرار فى أى منها. وتزيد خطورة هذه الاضطرابات أحيانًا لدرجة تدفع بالمراهق إلى الانتحار، وغالبًا ما تكون مصحوبة بالوسوسة وتسلط الفكرة الواحدة والعادات السيئة التى يتميز بها العدد الكبير من الأمراض النفسية.

وعدا هذه الأنواع الجزئية من فشل تأكيد الذات، توجد أمراض عقلية أكثر خطورة، منها "البرانويا" التى تظهر في صورة زيادة كبيرة في الإحساس بالذات يستحيل معها الاستمرار في الحياة الاجتماعية، ومع أنها قلما تظهر قبل سن النضوج، إلا أنها تبدأ عادة في المراهقة في صورة ضياع للصلة بالواقع لا يسهل تمييزه في أول الأمر أثناء أزمة الغرابة التى يمر بها الشباب. والمرض الثانى هو "الهستريا"، وهو أقل انتشارًا مما كان يعتقد أطباء النفس في نهاية القرن الماضى، ولكنه يكثر بين الشبات اللائى يملن للظهور واستعراض أنفسهن والتمثيل وتقليد الأشخاص حتى يسقطن، ولو إلى النصف، فى الوهم الذى خلقنه لأنفسهن.

وأكثر الأمراض خطورة هو "العته المبكر" في صورة فصام نفسى، وفيه يتحول النشاط النفسى عن الواقع وتستبدل ألوان الغرابة في الشخصية بانطواء تشنجى، ثم بلا مبالاة تزداد عمقًا إزاء الوسط المحيط، ويسمى هذا الاتجاه "بالانطوائية autism"، فيقضى المريض وقته في تقليب أفكار غامضة لا تنتهى. ويتقلص الفكر ثم يتحلل، ومن هنا جاءت تسمية "الشيزوفرانيا" التى تطلق اليوم على هذا الجنون المتزايد.

الأنماط الخلقية: وقد استمرت دراسة اضطرابات الشخصية كنقطة بداية كمجموعة من الدراسات تهدف إلى تصنيف أنماط الخلق السوى. فهناك من الأصحاء من يشبه سلوكهم سلوك المصابين بالشيزوفرانيا، وهم يكونون "مجموعة المنفصمين"، وهناك على العكس آخرون يميلون إلى الانبساط والاستمالة السهلة من وسطهم لهم، وتذكرنا طباعهم بالجنون الدورى لدى المصابين "بالذهان الدوى" وخير مثل لهذين النمطين هما دون كيشوت وسانشو بانسا. ويوجد أيضًا نمط "صرعى"، ونمط "هسترى" ونمط "برانوى"، ويمكن أيضًا استعمال هذا التصنيف الذى يقوم على الفصل بين أقسام كبيرة في الأمراض النفسية – للتمييز بين أنماط الخلق عند المراهقين. وله فائدة أخرى، إذ يلاحظ في دراسة النمو أن الطفل المتفتح العاطفى التلقائى يقترب من الجنون الدورى، بينما يذكرنا المراهق الذى ساء تكيفه وزاد انطواؤه، بالجنون الفصامى، ويمكننا أيضًا أن نتساءل إذا ما كانت الأبحاث الحالية في علم الخلق لن تزيدنا إيضاحًا عما يمكن تسميته "بدراسة نمو الخلق La Caracterogenie"

تكوين الخلق: كيف يمكن الإفادة من حركة تأكيد الشخصية إلى أقصى حد، لعمل منهج من التربية الحديثة للمراهقين من الجنسين؟ وهذا يردنا إلى مشكلة "تكوين الخلق" التى يجمع الكل في الوقت الحاضر على أهميتها الكبيرة بالنسبة للأمة في مجموعها.

ولا يمكن للتربية الكاملة أن تقنع بتكوين العقل، بل يجب عليها أيضًا أن تهيئ الفرصة لتطور الشخصية، بما في ذلك الثقة اللازمة بالنفس وبالحياة، وحب الحركة والمسئولية، وفرحة التغلب على صعوبة ما بعد جهد عنيف. ومجمل القول، أنه يجب الاعتماد على تأكيد الذات لتدريب الإرادة مع مراعاة شرطين ضرورين وهما: السماح للشخصية الشابة بالتعبير عن نفسها بطريقة "حقيقية" لحمايتها من شطحات الخيال الفياض، وتوجيهها نحو النشاطات الجماعية وهى نفس نشاطات سن النضوج حتى يمكن وقايتها من أخطار الفردية الجامحة.

ويمكن مواجهة تكوين الخلق بطرق ثلاث، أولا فى "الأوساط التربوية التقليدية" كالأسرة والمدرسة، ثم في "الجماعات الشابة" وهى التى يطلق عليها حاليا اسم "حركات الشباب"، وأخيرًا في "الوسط الاجتماعى البالغ".

ويجب أن يتركز جهد البيت في مباشرة الانتقال الشاق من حياة الوصاية إلى حياة الاستقلال. ولذلك يجب أن نوفر للشباب إمكانية حياة أقل تبعية وأكثر استقلالاً بأن نكرس لهم ركنًا أو حجرة خاصة، كلما أمكن ذلك. ويمكننا أيضًا أن نعطيهم بعض النقود كمصروف مع ملاحظة كيفية استعمالها بطريقة خفية، وكذلك، أن نشجع فيهم الإقدام حتى ولو للقيام برحلة خلوية تحت إشراف مرافق يحبونه ويثقون به.

وتتميز المدرسة بقيامها كجماعة تفوق الأسرة في عددها، ويلتقى فيها المراهق، كما في الشارع، بأخلاق متباينة، ولكنها تعتبر وسطًا أقل طبيعية، فيه تختلف ظروف الحياة حتماً عن ظروفها في الحياة العادية، وفيه أيضًا تقوم محاولات فتحها أمام التأثيرات الخارجية. ومع ذلك عليها – وهى تستطيع ذلك – أن تسهم جدياً في تكوين الشخصية مؤيدة في ذلك من الأسرة نفسها، وألا تكدس التلاميذ في الفصول، وأن تجد كل دفعة مدرسا محبوبًا من تلاميذه الكبار، يبذل لتحقيق ذلك كل جهده.

ويمكننا أن نحصل – مع الحالة الراهنة لنظامنا التربوى – على نتائج طيبة إذا ما أشركنا الشباب في حياة مدرستهم، وإذا ما عهد إليهم ببعض الخدمات الجماعية، وإذا ما ترك لهم جزء كبير من مسئولية إدارة جماعتهم الرياضية أو الموسيقية أو التمثيلية، وأخيرًا إذا عممنا استعمال العمل المدرسى في جماعات حتى يمكن أن نتلافى آثار التعليم الفردى. وسنربح الكثير من إعادة تنظيم مدارسنا لتصير مؤسسات تربوية حقيقية، وهناك العديد من المدارس التى تتميز بمبانيها العائلية، و"قادتها" الذين يختارون من بين التلاميذ ويتدخلون فى النظام وفى كل نشاطات المدرسة ويمكننا أيضًا أن

نستحدث إصلاحًا عميقًا في التكوين المدرسى تحقق به المدرسة إذا ما غيرت من خصائصها إعدادًا أكثر مباشرة للشباب يواجه به الحياة، ويترتب على هذا تغيرات كبيرة في عاداتنا حتى إنه يحسن بنا في الوقت الحاضر أن نكتفى بإمكانياتنا الحالية.

ولا يبدو أن المدرسة وحدها تستطيع أن تهيئ إعدادًا كافيًا للخلق، ولكن لحسن الحظ، تؤازرها فيه حركات الشباب.

وترتبط هذه الحركات بحاجة الشباب إلى التجمع فى جماعات صغيرة. و"الجماعة" المراهقة استمرار لجماعة الأطفال التى ترى فيما بين العاشرة والثالثة عشرة، ولكنها تتميز عنها بالرغبة في صداقة أكثر عمقًا وحياة جماعية تقوم على تشابه في الميول والآمال. وقد لا يكون لها دائمًا هدفًا مشرفًا، فإن المدن الكبرى خاصة تعرف جماعات المنحرفين التى يؤدى بهم نشاطهم إلى المحكمة. ولكن هناك جماعات أخرى تلقائية.

والكشفية هى أكثر حركات الشباب أهمية ونظامًا في الوقت الحاضر منذ تعمق مؤسسها بادن باول Baden Powell آمال الشباب وعرف كيف يفيد من إمكانياتهم المذهلة. ويتجمع الكشافة في "دوريات" لكل منها شاراتها وشعارها ونشيدها وكلمات سر خاصة بها، ويعيشون فى الهواء الطلق في حياة جماعية تقوى صحتهم وتعلمهم حب الإقدام والمسئولية، وتنمى فيهم روح التعاون والرحمة وغريزة الشرف والواجب وفى نفس الوقت تهذب فيهم انفعالات الطاقة الجنسية الوليدة. ولكن لا يتوفر للدورية نفس الاهتمام عندما تقترب المراهقة من نهايتها، فيحاول تنظيم "الجوالة" التكيف بهذه المرحلة الجديدة من النمو التى تبدأ وتأخذ فيها الحياة الفردية مكانة أكبر.

وعلى فرض أن حركات الشباب قد عممت، وأنها قد امتدت واستحدث فيها من التغيرات ما يناسب الفتيات أيضًا، يبقى لنا أمر هام يجب أن نفعله أو بالأحرى خطر يجب أن نحتاط منه. فمهما كان

نفع جماعات الشباب، لا يجب أن تكون عالمًا مغلقًا ومهربًا من حياة البالغين، وهذا ما قد يحدث، وقد انتبهت إليه منظمة جادندبوجانج Judendbewegungفي العشرينات من هذا القرن، إذ يجب أن نهيئ الفرصة داخل حركات الشباب، لإدماج الشباب في عالم البالغين ويكرس قادة الحركة الكشفية وهم من البالغين أنفسهم لهذا الغرض، ولكنهم لن يقوموا بهذا العمل على الوجه الأكمل إذا لم يساعدهم فيه الجسم الاجتماعى كله.

ومن الممكن – وهذا ما نرجوه – أن نعهد للمراهقين بأعمال تشركهم في الحياة الجماعية للأمة، وبخاصة في مجال الخدمة الاجتماعية التى تحتاج دائمًا لبذل الجهد. ولا يجب أن تقتصر مراكز التدريب على المجال المهنى، بل يجب اعتبارها كمراكز تربوية يتمرن فيها العمال من الشباب على الحياة. وكذلك يجب أن تكون الخدمة العسكرية أيضًا فرصة لإسهام الشباب كله في أعمال ذات نفع عام، فتكون لهم بمثابة أول عمل شخصى وجماعى يقومون به، ويمكن شخصيتهم من الثبات والرسوخ.

ومن أجل صالح المراهقة والبلد، يجب أن يتمكن الشباب بكل مستوياته، وفى الأسرة والمدرسة، وفي حركات الشباب، وفي المدينة، من التمرس على العمل المستقل الخلاق، وبذلك يتسنى للشخصية التى تفتحت وتحددت معالمها أيضًا أن تعطى ثمارها.

2) ظهور التفكير الشخصى :

ذكاء المراهقين: إذا ما وجهت بغتة بالسؤال التالى: هل المراهق أكثر ذكاء من الطفل؟ فإنك تكاد ترد عليه بالإيجاب، ولكن مع التفكير يعتريك بعض الشك.

وتزيد المعرفة في الواقع فيما بين الثانية عشرة والعشرين، سواء كانت بالدراسة حبًا في النجاح في الامتحانات، أو بتعلم مهنة ما، ولكن هل يستمر نمو الذكاء حتى يأتى سن النضوج، مثله في ذلك مثل الهيكل العظمى –ونصف بالذكاء القدرة على الاستعانة

بالتفكير فى حل مشكلة جديدة، وتكييف النشاط لظروف جديدة؟ أم هل يظهر الذكاء وينتظم خلال الطفولة؟

وتكاد تقف نتائج علم النفس المعاصر إلى جانب الذين يقترحون أن الذكاء قلما ينمو بعد البلوغ، ولعلك تعرف أن "الاختبارات" قد سمحت بتحديد المستوى العقلى للطفل سنة بسنة، وإقامة ما أسماه بينه Bient "بمقياس الذكاء"، فإذا بالنمو العقلى الذى تقيسه هذه الاختبارات يتناقص عند سن البلوغ، ويقل تقدمه بعد سن الرابعة عشرة حتى يصل إلى سن النضوج، وهنا يصبح المنحنى الإحصائى أفقيًا، بل كان بينه يعتقد أيضًا أن عامل المصنع قلما يتخطى في المتوسط العمر العقلى لسن الثانية عشرة.

وقد أثبتت الملاحظة بدورها أن الذكاء يحتفظ بمستواه خلال نمو الفرد بمعنى أن للطفل الموهوب فرصة كبيرة – إذا كان يتمتع بصحة جيدة – في أن يصير مراهقًا ثم رجلاً ذا ذكاء يفوق المتوسط. وإنى أكاد أسمع اعتراضك، فتقول: ألا تظهر صحوات متأخرة في الذكاء؟ والجواب: بلى، وبخاصة إذا اعتلت صحة الطفل ثم تحسنت عند البلوغ فإن ذكاء الطفل الذى خبا فترة طويلة يتنفض فجأة حتى يمكنه تعويض الوقت الضائع. ولكن هذه حالات نادرة، ولو أن الاعتقاد سائد بكثرتها إذ إن الأطباء كثيرًا ما يلتقون بها؛ لأننا لا نستشير الطبيب إلا عند المرض، وهكذا علينا ألا نأخذ الاستثناء كقاعدة.

وتميل الاختبارات إلى تأكيد ثبوت الذكاء أثناء النمو عند الطفل على الأقل، إذ غالبًا ما تبقى نسبة الذكاء – أى العلاقة بين العمر العقلى والعمر الحقيقى أو الزمنى – ثابتة عند نفس التلميذ بينما تميل إلى التناقص مع السن عند الفتيات. وتتمثل هذه النسبة فى ...! إذا كانت مساوية للواحد الصحيح، وتتراوح بين 50 ، 80 عند المتـأخرين عقليًا، وبين 110، 140 عند الموهوبين، وعلينا مراعاة أن لتقدم النمو العقلى أو لتأخره أهمية أساسية في علم الشباب، فإذا افترضنا وجود طفل بلغ وهو في سن الثانية عشرة مثلا العمر العقلى

لسن الرابعة عشرة، أى بنسبة ذكاء 116، نجد أيضًا أنه يملك معظم السمات النفسية الخاصة بالسنة الرابعة عشرة من الحياة، وهكذا يصل الأطفال الموهوبون إلى تفكير المراهقة قبل البلوغ، بينما يظهر على المتأخرين الذين تقل نسبة ذكائهم عن 70 مثلا، آثار الطفولة النفسية حتى ولو كانوا من البالغين.

ويبدو أن السنوات الحاسمة من الناحية العقلية، تقع بين التاسعة والثانية عشرة، وقد أثبتت أبحاث بياجيه Piaget أن التفكير فى هذه اللحظة يتخلص من خاصية مركزية الذات، أى أنه يقلع عن التفسيرات الساذجة، ويصير قادرًا على تفهم مبدأ السببية بين الظاهرات وعلى التفكير بطريقة منطقية. وهكذا يصل إلى مرحلة التفكير الاجتماعى النقدى. ويبدو أن الارتباط بين ظهور التفكير المنطقى الذى يقترب من تفكير الشخص البالغ واللحظة التى يأخذ فيها النمو العقلى الذى يقاس بالاختبارات فى الإبطاء، حجة جديدة للقضية القائلة يتوقف كل تقدم حقيقى فى الذكاء بعد انتهاء مرحلة الطفولة.

وقد نتساءل إذا ما كان الذكاء لا يتناقص أثناء المراهقة بسبب انتفاضة العاطفة وظهور الغريزة الجنسية، فإن عقل طفل في الحادية عشرة من عمره، وهو عملى، موضوعى، متكيف تمامًا بالعالم الخارجى يبدو أكثر قربًا من عقل البالغ عن عقل المراهق فهو خيالى، محمل بالخيالات وأقل اهتمامًا بما يحيط به، بينما يزيد اهتمامه بانفعالاته الخاصة.

ولكن علينا مع ذلك ألا نتسرع الحكم، فكل هذه الحجج تقبل إلى حد ما الجدل.

ويظهر تطبيق الاختبارات فى الواقع نموًا محسوسًا حتى سن الرابعة عشرة، وهى السن التى تبدأ فيها المراهقة وبخاصة عند الفتيات، ويسمح لنا هذا التطبيق كذلك بملاحظة أن التقدم مع إبطائه، يبقى ملموسًا حتى حوالى سن الثامنة عشرة، وأحيانًا لما بعدها.

وهكذا يجب ألا نخضع لنظرية بينه عن سن الرابعة عشرة، وكذلك عن سن الثانية عشرة بحذافيرها، فإن تغيير العقلية الطفلية أثناء الطفولة الثالثة لا يتم في طفولة مفاجئة، بل يبدأ منذ سن الحادية عشرة أو الثانية عشرة ظهور التفكير المجرد، ويتأخر التفكير المتركز في الذات. وتدل التجربة أن كثيرًا من المراهقين الذين أحسن اختيارهم، ليسوا بعد قادرين على التفكير الدقيق.

ويزيد الحديث عن ذبول الذكاء في المراهقة، فإذا كان ذلك نكوصًا، فلن يكون إلا خلال فترة الاضطراب البلوغى؛ إذ إن حماس الشباب يتناسب على العكس مع تألق الذكاء. ولكن هل هناك على الأقل نكوص وقتى؟ لا، فقد يبدو لنا الفتى غامضًا والفتاة خاملة، ولكنهما ليسا أبلهين. والحقيقة أن "الاهتمامات" العقلية تخلى السبيل للاهتمامات الانفعالية والعاطفية، ولكن "الوظيفة" العقلية ذاتها لا تختفى.

ولنذهب إلى أبعد من ذلك، فإذا سلمنا أن ذكاء الطفل الطبيعى في سن الثانية عشرة، يساوى ذكاء عامل غير متخصص في العشرين أو الثلاثين من عمره، فإننا نسلم بوجود عدم توازن غريب بين النمو الجسمى والنمو العقلى. ويعترض هذا أن ظهور الذكاء يبقى مستقلاً عن تطور الوظائف العقلية التى تسهم بالتأكيد في نجاح الذكاء، مثل الإدراك والذاكرة والخيال والتفكير إلخ ...

وإذا كان النضج الحسى يبلغ حده الأقصى منذ الطفولة، فإن النشاط الإدراكى الذى يعتمد على عدد كبير من الوظائف النفسية، يتقدم ببطء أكثر أثناء النمو كله، وهذا ما تشهد به المراحل التى فرق بينها سترن في تطور وظيفة الملاحظة، وكذلك وظيفة الذاكرة التى كان يعتقد بتفوقها عند الطفل أكثر منها عند الرجل، فإنها تزيد في الواقع حتى سن الثانية والعشرين أو الخامسة والعشرين مع نمو مفاجئ فيها فيما بين الثالثة عشر والسادسة عشر، طبقًا للتجارب التى أجراها ميمان Meamann على الذاكرة المباشرة، وتكون الفتيات حتى سن الرابعة عشرة أكثر استعدادًا من الفتيان للحفظ لمدة أطول،

وعلاوة على ذلك، لا تثبت أنماط الذاكرة البصرية والسمعية والحركية قبل نهاية المراهقة، وأخيرًا، لا تظهر ذاكرة العواطف إلا عند البلوغ وقد رأينا أن الخيال بدوره يمر عند المراهقة بتطور كبير.

وهكذا نرى أن الذكاء لا ينمو على الوجه الأكمل في نهاية الطفولة الثالثة، ونحن نتسائل عما إذا كانت نتائج اختبارات النمو التى تبدو مناقضة لهذا الرأى، لا تبرهن فقط إلا على أن هذه الاختبارات التى كانت صالحة في الطفولة، تقل صلاحيتها كثيرًا في المراهقة. وقد تبين أن هذه الاختبارات التى أجريت على الشباب كانت صعبة التفسير كثيرًا، وكذلك قلت نتائجهم فيها. وهكذا يبدو أننا لا نملك في الوقت الحاضر طريقة تجريبية كافية لدراسة ذكاء المراهقين.

ومع ذلك فإننا لا نجهل كل ما يدور في المجال العقلى خلال هذه السنوات، ولكننا سنقتصر على دراسة ثلاث ملاحظات هامة، فمنذ البلوغ يميل الذكاء نوعا ما إلى التخصص تبعًا للأفراد فى "استعدادات خاصة وثانيًا، يمر الشبان خاصة "بمرحلة جدلية" تجعل من المراهقة أفضل سن للتفكير، وأخيرًا، يصل المراهق في تلك اللحظة إلى مبدأ رئيسى، هو "مبدأ القانون".

وتضم هذه الظروف الجديدة الخاصة بالمجال العقلى إلى الظروف التى أتينا على دراستها فيما يختص بالعاطفة والخلق تسهم في تكوين الفكر الشخصى عند الشباب.

نمو الاستعدادات (*): والذكاء العقلى وظيفة كلية كان يجتهد في قياسها إزاء كل "عمل ذكائى"، ولكن قبل البلوغ بقليل، تظهر "الاستعدادات"، وهى كما يقول كلاباريد Claparede الذى اهتم كثيرًا

(*) توجد دراسة مستفيضة عن الاستعدادات في الفصل الأول من القسم الثانى من كتاب "علم النفس التطبيقى" لمحمد زيدان وحلمى عمر وقد نشرت هذه الترجمة دار الأنجلو المصرية – الطبعة الأولى لعام 1965.

بهذا الموضوع، قدرات طبيعية تميز بين التكوين النفسى لفرد معين وتكوين نفسى آخر، وتجعله قادرًا عند التماثل في تربية هذه القدرات على إنتاج أحسن. ويمكن أن نعتبر استعدادات عدة وظائف عامة مثل الحكم والانتباه، أو قدرات خاصة أكثر تعقيدًا مثل الاستعداد للرياضيات أو للرسم. وهذه القدرات الخاصة هى التى تهمنا أكثر إذ يعتمد عليها التوجيه المهنى للمراهقين، ولكنا لا نلم بها مع ذلك تمامًا، وحتى "مبدأ الاستعداد" نفسه هو موضع جدل فى أيامنا هذه، ويميل بعض الكتاب لاستبداله بمبدأ "القدرة على التكيف".

ولكن هناك اتفاق على الاعتراف بثبوت هذه الاستعدادات سريعًا منذ لحظة البلوغ، ويظهر بعضها مبكرًا، ويسبقها كلها الاستعداد الموسيقى ولو أنه لا يتأكد إلا ابتداءً من سن العاشرة، باستثناء الموهوبين. وبعد سنة، يظهر الاستعداد الميكانيكى الذى تعبر عنه القدرة التكنيكية. ثم يأتى الاستعداد للرسم. ويقل تأكدنا من الاستعدادات الأخرى التى يتضح وجودها بعد ذلك، وهى الاستعداد للرياضيات في حوالى سن الرابعة عشرة، ثم الاستعداد الأدبى، وأخيرًا الاستعداد العلمى الذى لا يظهر قبل السادسة أو السابعة عشرة إلا فيما ندر.

وهناك سؤال: هل يظل الاستعداد المبكر على قوته عند البالغ؟ ونتردد عن الرد بالإيجاب، إذ قد لا تكون القدرة التى يطلق عليها استعدادًا إلا تعبيرًا عن اهتمام مؤقت يزول بظهور اهتمام آخر، فقد يهتم أحدهم في سن الثانية عشرة بالميكانيكيات ثم يكتب الشعر في الخامسة عشرة، ولكن ليس من الضرورى أن يصير مهندسًا أو شاعرًا. ويلاحظ كذلك أن لدى التلميذ الذكى شبكة من الاستعدادات، ولكننا لا نستطيع التنبؤ بتلك التى ستستولى عليه فيما بعد.

ويستعان بالاختبارات لقياس الاستعدادات، وكذلك لدراسة النمو العقلي ولكننا نهتم هنا بترتيب الأشخاص تبعًا لقدرة معينة، وأملنا كبير في التوصل إلى مجموعة من الاختبارات تعطى نتائجها

عن الاستعداد المدروس خطأ في "الصورة النفسية" لكل مراهق. وتكمن الصعوبة هنا في اختيار الاستعدادات الميزة، ولم يمكننا حتى الآن التغلب على هذه الصعوبة.

وثمة سؤال آخر: هل تستقل هذه الاستعدادات عن بعضها البعض؟ أم أنها ترتبط تمامًا أو حتى جزئيًا؟ وهل يمكن التعبير عن هذا الارتباط بينها بصورة عددية؟ وقد أثار هذا السؤال جدلاً طويلاً وفي الوقت الحاضر، تتمتع نظرية سبيرمان بتأييد كبير، فقد توصل عالم النفس الإنجليزى بعد دراسة واعية مستفيضة إلى وجود عامل عام (G) وهو وظيفة أو مجموعة من الوظائف المشتركة في كل المظاهر العقلية، ويظل هذا العامل ثابتًا في كل الاختبارات التى تجرى على نفس الفرد، وعامل خاص (S) ويتغير من استعداد لآخر. عند نفس الفرد. ويسود العامل العام في أول الأمر. ثم تزيد أهمية العامل الخاص من سن الثانية عشرة. وهذه دعامة جديدة تعتمد عليها فكرة نمو الاستعدادات عند البلوغ، وكشفًا محددًا عن حركة الذكاء أثناء المراهقة.

وهكذا، دون أن يغير الذكاء من طبيعته، يتخذ بعد الطفولة شكلاً جديدًا بفضل الاستعدادات التى تهيئ فرصة التخصص لنشاطه. فمن بين الكثيرين من تلاميذ المدرسة الابتدائية المجدين، يصير أحدهم محاميًا أو مدرسًا وقد كان يحب الأفكار ويتمتع بذاكرة طيبة وخيال متيقظ، ويصير الآخر مهندسًا لمهارته اليدوية وبراعته في حل المعادلات الرياضية أو الكيمائية. وهكذا "يتشكل" الذكاء في المراهقة. أليس هذا خير جواب على الذين لا يرون في هذه المرحلة إلا اضطرابًا ذهنيًا خطيرًا؟

التوجيه المهنى: قام التوجيه المهنى لضرورة مساعدة الشباب على إيجاد مهنة تتفق واستعداداتهم الحقيقية، وهو يهم خاصة هؤلاء الذين يحتاجون منذ وقت مبكر لاختيار عمل – أى قبل أن تتاح الفرصة لاستعداداتهم كى تتكشف بطريقة مؤكدة. ويرجع نجاح التوجيه فى ميدان الحرف اليدوية للاختبارات الحركية الفائقة الدقة

أحيانًا، ولكن حتى في مثل هذه الحالات، لا تكفى الاختبارات لأنها – كما يرى كلاباريد – تشخيص محتمل لاستعداد، لا تأكيد لوجوده. وهكذا كان على التوجيه المهنى أن يحيط نفسه بضمانات أخرى، خاصة الفحص الطبى والنتائج المدرسية ورغبات الأسرة والمراهق. ولا يجب الخلط بين "ميول" التلميذ واستعداداته؛ إذ قد يحب في أول الأمر مهنة ليس لديه إلا استعداد ضعيف لها، ومع ذلك يجب الأخذ بهذا العنصر العاطفى لأن الاستعداد بدون ميل طبيعى لا يؤدى إلا إلى إنتاج ضعيف، والشخص الذى لا يحب عمله قد يتجه إلى تغيير مهنته والتعرض لعدم الاستقرار. وكذلك على التوجيه أن يهتم بالذكاء العام للفرد، إذ من حق التلميذ الموهوب ذى نسبة ذكاء مرتفعة أن يطمع في مركز أحسن من ذلك الذى ينتظر التلميذ ضعيف الذكاء. ويدلل "المرشدون بالتوجيه المهنى" من الأمريكيين على إخلاص جريء في هذا المجال عندما ينصحون ابن المصرفى أو ابن الموظف الكبير، إذا ما قل ذكاؤه وكان أكثر نجاحًا في الأعمال اليدوية أن يصير طاهيًا أو بستانيًا، ومع ذلك فهم يعلنون عن عدم رضا الأسرة عادة بهذا الرأى، وأخيرًا لا يفوتنا أن نهتم بالتحذيرات الطبية أو النفسية. فإن المصاب بعمى الألوان لا يستطيع أن يصير مهندسًا ناجحًا بالسكة الحديد، كما أن من يكره رؤية الدم لم يجعل ليكون قصابًا (جزارًا).

أفكار الشباب وجدله: درسنا نمو الاستعدادات بالنسبة لشباب يستعد للتلمذة المهنية. أما الجدل فيظهر خاصة عند الذين يستكملون دراساتهم.

ويقول مندوس Mendousse إن المراهق قد يكون أقل تعقلاً من الطفل ولكن بالتأكيد أكثر منه تفكيرًا، فهو يهوى المناقشة منذ سن الرابعة أو الخامسة عشرة، ويقدم على حل المشكلات إقدامًا جنونيًا. فهذه هى السن التى يولع فيها بمشكلة تربيع الدائرة أو الحركة الدائمة، ثم يختار بين الحجج التى كان يتسعين بها من قبل مختلطة بعضها ببعض. ويتحسن تفكيره المنطقى معتمدًا في ذلك على العادات التى اكتسبها في الفصل. ونحن نعلم جيدًا المكان الذى تشغله

المناقشات الأخلاقية والسياسية والدينية بين التلاميذ الذين يدرسون الفلسفة.

ويرتبط تقدم التفكير بالكشف عن الأفكار العامة، ويحدث هذا في سن الرابعة عشرة، ثم بالكشف عن العلاقات المنطقية التى تجمع بين هذه الأفكار، وكذلك بإمكانية الانتقال من مجرد التحقق إلى العرض الرياضى ومن الحساب إلى الجبر. وتدل كل هذه الوقائع على زيادة القدرة على التجديد عند التفكير. ويتكون الجدل شيئًا فشيئًا. ويصبح لعبة محببة لنفوس الشباب، وتكون للفتيات إمكانيات مماثلة، ولكن يقل ميلهن للجدل؛ إذ إنهن يفضلن أسلوب المواجهة ووسائل المنطق العاطفى، وتؤدى بهن المرونة العقلية المدهشة إلى استيعاب المعلومات الدراسية.

ويظهر التطرف في عادة التفكير في الفصول الدراسية العالية، ويخفى المراهقون الزعزعة التى تلاحظ عندهم عند استعمال أشكال التفكير المختلفة والتدليل بالحجج، بنوع من البلاغة الرنانة، وتصبح العبارة عند الشباب أكثر ثراء بالمفردات وأكثر قوة في بنائها عن عبارة الطفل، وتتهيأ بذلك للتعبير عن الأفكار العميقة، ولكنها غالبًا ما تكون كالثوب الفضفاض؛ لأن المفردات تزيد بسرعة لا يستطيع المراهق معها أن يستوعبها. فهو يعتقد أنه يفهم، ولكنه لا يفهم في الواقع إلا النصف وقد يفهم العكس. ويؤدى حب اللعب بالألفاظ المجردة إلى ثرثرة تذكرنا بتلك التى كان يمارسها الطفل في سن الثانية أو الثالثة عندما يحصل على أولى مبادئ اللغة. ويتخذ المراهق لنفسه عادة التفكير بالكلمات التى تفقد كل علاقة لها بالواقع وتصبح فقط مجرد رموز. وهناك مقابل لتقدم القدرة على التحليل، وخاصة التحليل الذاتى، إذ غالبًا ما يلاحظ عند محبى التفكير ميلاً للفطنة، وعادة الدقة في التمييز من أمراض الشباب، مثل حب الشباب. وأخيرًا، يكسب الإفراط في التفكير المنطقى، وخاصة في القياس المنطقى، المراهق شيئًا من الجفاف، ويسلك المراهق عن طيب خاطر سبيل العقيدة، وينتشى من الوصول إلى طريقة، لا للمعرفة، بل للبرهنة على أنه على صواب، وكذلك يوجد عند بعض

المراهقين نوع من الصلابة في التفكير. وميل متزايد للمقابلة والمناقضة، وبالتالى نوع من التفكير الهوسى المريض يصادف أيضًا عند من سيقع منهم مستقبلاً في الجنون الفصامى.

ويعتبر هذا التطرف عادة – ولحسن الحظ – انحرافًا في التفكير الشخصى الذى يتفتح، وهذه هى ضريبة الاندفاع في التعلم، ولا يعنى هذا القول أن نعجب بالشباب المجادل، بل يقوم فن المربى على توفير المرونة للأداة التى يستخدمونها، وهذه مهمة صعبة؛ إذ إن ما يحتاج إليه تفكير الشباب، هو التجربة الكافية التى يحسن توجيهها فالشباب لا يعرفون كيف يحصلون على التجربة ولا كيف يستخدمونها، ويضللهم في ذلك سلوك الآخرين. ولكن ما أن تلازم التجربة التفكير حتى يدل هذا أخيرًا على قدوم سن النضوج.

الكشف عن مبدأ القانون: وثالث نتيجة للنمو الفكرى هى الوصول إلى مبدأ القانون، وتعد لهذا التقدم الحاسم دراسة الظاهرات الطبيعية أثناء الطفولة الثالثة؛ إذ يلاحظ الطفل العلاقات القائمة بين الظاهرات، ويتعلم عدة قوانين طبيعية يتحقق من صحتها بالتجربة. وتضم مراجعة اختبارات بينه التى قام بها ترمان على اختبار لسن الرابعة عشرة يطلب من الفرد إيجاد قانون بسيط لمجموعة من الأرقام. ولكن إذا كان مبدأ القانون يبدأ مع البلوغ، فهو لا يتحقق في الواقع إلا فى النصف الثانى من المراهقة عندما يسيطر العقل على كل إمكانياته ويستطيع لأول مرة أن يلم بالعالم الخارجى كبناء متماسك مفهوم. ويصير القانون عندئذ تعبيرًا عن العلاقات العامة الضرورية التى تربط بين الظاهرات، وفى هذه اللحظة أيضًا، يكتسب القانون معانيه المختلفة،من علمية وسياسية وأخلاقية ودينية، فلم يعد مجرد جزء من المعرفة، بل يتضمن الجهد الشخصى، وهذه ليست إلا إمكانية لا يبلغها المراهق دائمًا.

العقلية الذاتية: وإذا ما أردت توصيف تفكير المراهق مبتدئًا من الوقائع التى ذكرناها حتى الآن، فستجد أنها تبلغ بعد حد التفتح المتسق.

والمبالغة في العاطفة وشحوذ الخيال والميل للتفكير البديهى ونقص التجربة تكسب تفكير المراهق ذاتية ومدرسية في نفس الوقت، فتظل عناصر النشاط فيه غير كاملة التكيف والتسلسل، وهو تفكير غنائي في جوهره، يعانى في مجموعه من المبالغة في الفردية، أى أن المطابقة فيه بين الذات والموضوع لم تكتمل بعد. وللطفل تفكير مماثل، ولكن بينما يتجسد تفكير الطفل في الحدث ويمتزج بالأشياء والكائنات. ينفصل عنها تفكير المراهق، ولكنه لا يصل إلى التحرر من الذات رغم اندفاع الشاب في التفوق على نفسه. ويحتفظ هذا التفكير علاوة على ذلك بشيء يذكرنا باللعب، ويميل للاستعراض، بل ولاستعراض نفسه أيضًا. ولهذه الأسباب يمكننا أن نصفه، إذا ما غيرنا قليلاً معنى الكلمة التى استعملها ستندال Stendhal(٦) "بالتفكير الذاتى" يقابل في المراهقة ما يسمى في الطفولة بالتفكير "المتركز في الذات" الذى وصفه بياجيه.

(٦) كاتب فرنسى في القرن التاسع عشر، اشتهر في كتاباته بتعمقه في تحليل شخصياته.